المبحث الرابع

الإعجاز النفسي والإعجاز الروحي في القرآن الكريم

لقد تحتّم على كل من سار في منهج البحث العلمي أن يجد بعض القضايا التي ذُكرت في كثير من الكتب التي تحدّثت عن إعجاز القرآن فكان من ضمن هذه الأوجه المذكورة هو الإعجاز النفسي والإعجاز الروحي، وهل كل واحد منهما مستقل في الإعجاز؟ أهما وجه واحد أم وجهان لكل منهما مفهومه ومعناه؟... تساؤلان لابد من البحث عنهما والإجابة عليهما، ونلاحظ أن بعض الكاتبين ذكر أن الإعجاز النفس له أكثر من مظهر منها: تأثير القرآن في النفس الإنسانية، ومنها الحديث عن النفس الإنسانية، ومنها تمزيق القرآن لحواجز النفس الإنسانية[1].

أما تمزيق القرآن لحواجز غيب النفس، كما ذكر الشعراوي[2] فهذا في الحقيقة ليس إعجازاً نفسياً، وإنما يدخل في وجه آخر وهو أخبار القرآن عن الغيوب. وقد تحدثنا عنه، وإنَّ تأثير القرآن في النفس الإنسانية، فهو لا يسميه العلماء إعجازاً نفسياً، بل هو إعجاز روحي. فإذا لم يكن الإعجاز النفسي شيء من هذا كله، فما هو الإعجاز النفسي -إذن- كما يراه العلماء؟

يرى العلماء أنَّ الإعجاز النفسي في آي القرآن الكريم، هو ما نلمحه في تلك الآيات، وهي تتحدث عن أصناف الناس ومشاعرهم ومواقفهم، وما يفرحهم وما يحزنهم، ما نجده من بيان المكنونات النفس وخفاياها في آي القرآن قد يكون في القضية القرآنية، وقد يكون في الحديث عن أعداء

---

(١) ينظر: البيان في إعجاز القرآن: ٣٣٨.

(٢) المعجزة: ١٠٨/١.

المسلمين، وقد يكون ذلك في الدنيا وقد يكون في الآخرة، فإنَّك لتقرأ الآية من القرآن الكريم؛ وإذ بها تصور نفسية أولئك الذين تتحدث عنهم صورة واضحة، والآية من القرآن الكريم نجدها تطلعنا على مضمرات هذه النفس وخفاياها، وإنَّك لتقرأ الآية وتتدبرها، فلا تغادرها إلا وأنت أمام صورة محكمة دقيقة لهذه النفس -والله أعلم- تلك هي خاصية هذا الكتاب المجيد.

ويقول الشيخ الغزالي -رحمه الله-: «ما أظن امرءاً سليم الفكر والضمير يتلو القرآن أو يستمع إليه ثم لا يزعم أنه لم يتأثر به: قد نقول: فلم يتأثر به؟ والجواب أنَّه ما من هاجس يعرض للنفس الإنسانية من ناحية الحقائق الدينية إلا ويعرض القرآن له بالهداية وسداد التوجيه. إنَّ القرآن الكريم بأسلوبه الفريد يرد الصواب إلى أولئك جميعاً، وكأنَّه يعرف ضائقة كل ذي ضيق، وزلة كل ذي زلل، ثم تكفّل بإزاحتها كلها، كما يعرف الراعي أين تاهت خرافه، فهو يجمعها من هنا وهناك، لا يغيب عن بصره ولا عن عطفه واحد منها... حتى الذين يكذبون بالقرآن يرفضون الاعتراف بأنَّه من عند الله. إنَّهم يقفون منه مثلما يقف الماجن أمام أب ثاكل! قد لا ينخلع من مجونه، ولكنه يؤخذ فترة ما بصدق العاطفة الباكية، أو مثلما يقف الخلي أمام خطيب يهدر بالصدق، ويحدث العميان عن اليقين الذي يرى ولا يرون... إنه قد يرجع مستهزئاً، لكنه يرجع بغير النفس التي جاء بها»[1].

وهذا التأثير النفسي الذي أشار إليه الشيخ محمد الغزالي -رحمه الله- هو من أظهر خصائص القرآن الكريم التي تبرز عن سماعه، فيمضي سامعه في تفكير يملك عليه أقطار نفسه، فيفضي به إلى الإيمان إذا صفت نفسه

(١) نظرات في القرآن: ١٢٧-١٢٨.

واستقامت فطرته، أو يفضي به إلى مزيد من العناد يدفع به هذا التأثير خشية الامتناع به إذا كان السامع غليظ القلب جاحداً للحق[1].

أما الإعجاز الروحي: فهو ذلكم التأثير العظيم لهذا القرآن على النفوس هيبة وحلاوة، ولا يُعرف كتاب في الدنيا له من الأثر على تأليه ومستمعيه، كما لهذا القرآن، حتى أولئك الذين لا يدركون معانيه، ولا يفهمون ألفاظه، نجدهم يتأثرون بالقرآن الكريم، وصدق الله حينما قال في كتابه العزيز: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾[2].

وأنَّ أول من نبّه على هذا الوجه في القرآن هو الإمام الخطابي حيث جعل الخطابي –رحمه الله– الوجه الأهم في إعجاز القرآن بلاغته وبيانه، ولم يهمل الإعجاز الروحي، لذلك فقد رأينا بعض الكاتبين المحدثين جعل هذا الوجه أهم وجوه الإعجاز، وكل ما عداه يقصر عنه، ومن هؤلاء المرحوم محمد فريد وجدي[3].

ولهذا نجد إنَّ الخطابي –رحمه الله– يقول في هذا الوجه مقولته: «قلت في إعجاز القرآن وجهاً آخر ذهب عنه الناس، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منثوراً، إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة

(١) ينظر: الإعجاز اللغوي: ٨٤.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٢٣.

(٣) ينظر: صفوة العرفان في تفسير القرآن: المقدمة، وينظر: إعجاز القرآن: ٣٤٥-٣٤٦.

والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق، وتغشاها الخوف والغرق، تقشعر منه الجلود، وتترعج له القلوب...»[1].

ونجد كلام الله تبارك وتعالى، هو في أعلى طبقات البلاغة وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ﴾[3]. إذن فالإعجاز الروحي[4] إن أردنا أن نعدّه وجهاً من وجوه الإعجاز فهو ناشئ عن الصبغة البيانية السامية، والأسلوب الرفيع، والنظم البديع. ولهذا فإنَّ الإعجاز النفسي والروحي كليهما ناشئان عن الصبغة البيانية للقرآن الكريم التي تتمثل في أصوات حروفه وترتيبها في كلماته، ونظم هذه الكلمات في جملة[5].

❁ ❁ ❁

(١) ثلاث رسائل في إعجاز: ٧٠.

(٢) سورة هود، الآية: ١.

(٣) سورة الرعد، الآية: ٣١.

(٤) ينظر: البيان القرآن: ٢٤٧.

(٥) ينظر: إعجاز القرآن: ٣٤٨.